آدم بمبا *

الداعية الأمريكي الحاج مالك شباز (مالكولم إكس)

الحجُّ وفعلُه التغييري في حياته وفكره

(الصفحات ١٣٥- ١٧٢)

ملخّص

مالكولم اكس مرّ بتجارب عديدة في حياته ابتداءًا من الضياع في متاهات الجريمة، إلى اعتناق توجّه إسلامي منحرف في أمريكا، ثم الاهتداء إلى الإسلام الحقّ النقي، وكان للحج الفضل الكبير في هذا التحول الأخير، إذ إن الحج جعله يفكّر في حركية المشروع الإسلامي، وجعله يرتفع من الحضيض إلى قمة المثل العليا، ويناضل ضدّ العنصريّة، ويتحلّى بروح النقد الذاتي، ويتوجّه إلى الإسلام القائم على أساس القرآن والسنة، ويعيش حياة الأمل والثقة اليقظة، وأن يفكر بشكل صحيح في مشكلة السود الأمريكيين.

إذا كانت وحدة الأصل البشريّ، وتساوي الشُّعوب مسلَّمة طبيعيَّة، فإنَّ هذه الحقيقة يصعب الاهتداء إليها في ظلِّ العنصريَّات والمواقف المسبقة عن الشُّعوب والأمم، ولا سبيلَ إلى رفع هذا الكَلَف عن وجه هذه الحقيقة النَّاصعة إلاَّ بتوفير

---

* - كاتب من ساحل العاج.

فـرَص مـن «التعـارف» الحـقِ بـين النـاس؛ فالإنسـان عـدوٌ مـا يجهـل. و إذا كانـت وسائل انتقال الأفراد والجماعـات، وأسـباب اختلاط الأمـم بعضـها ببعض متعـدِّدة، فإنَّ رحلة الحج تظلُّ قمَّة الوسائل في توفيرمسرح حيٍّ لتقرُّب الإنسان إلى غيره، ونبذ العنصريَّة، وصُوَرالاستعلاء العرقيّ بين الأجناس.

ومن هذا المنطلق، تأتي أهميَّة الوقوف عند شخصيَّة فريدة من رجالات الدَّعوة الإسلاميَّة ممن حملوا اللَّقب الشَّرقي «الحاج» بجدارة إن شاء الله، ويصحُّ أن نُلصِق عليهم طابعًا يحمل «صُنِع في مكّة»، وذلك بفعل التَّجربة الإيمانيَّة الخصبة التي عايشوها في الحجِّ، تجربة لا نبالغ إنْ قلنا: إنَّها أحدثت في حياتهم وسلوكهم تغييرًا لم يُبقِ على شخوصهم السَّابقة إلاّ اللَّحم والدَّم، فكأنَّ الحج آلة عجيبةٌ في «صنع» البشريخرج منها الحاج «كيومَ ولدَتْه أمُّة».

تلك الشَّخصيَّة هي الحاج مالك شباز(مالكولم إكس سابقًا) «شهيد الإسلام الأوَّل في أمريكا»[1]، الذي تمثِّل قصَّة حياته رحلةً طريفة في الانتقال إلى «الآخر»، والتَّعرُّف عليه، ونبذ الفوارق العرقيَّة لصالح الأخوَّة الدينيَّة، رحلة وضعتْ خطًا فاصلًا بين مشهدَين متضادَّين من حياة صاحبها، مشهدٌ أوَّل هو الصِّراع بين الرَّجل الأسوَد والأبيض، منطِقه «اللاَّمساس» وحوارهُ «فإنَّهم عدوٌّ لي». أما المشهد الآخر، فمنطقه منطق الانفتاح والأخوَّة، حتى لكأنَّ البطل الذي ظهرفي المشهد الأوَّل قد استُبدِل بإنسانٍ آخرمختلف عنه في جميع المواصفات النفسيَّة والسلوكيَّة.

استجلاءً لهذا الفعل التَّغييريّ في حياة الحاج مالك شباز، فقد ارتأينا عرض حياته بصورة إجماليَّة، مع الوقوف عند مرحلة الحجَّ لاستخلاص الدُّروس والعِبَرفي سيرة حياته المطبوعة، آملين أن تنفع في إقامة الحجَّة لنا في روح الأخوَّة في الإسلام، وفي اضطلاع شعائره بتأمين السَّلام العالمي، وفي تهذيب الإسلام لأتباعه، وجعلهِم «رُسَل سلام» إلى أقوامهم ومجتمعاتهم، لا «تماثيل سلام» خرساء!

من جانب آخر، فإنّ من الأجدار بالمسلمين اليوم، ـ خاصَّة ـ في ديار الغرب، ونحن في خضمِّ حملات التَّفريق في الصف الإسلاميّ، وحملات تشويه صورة الإسلام، تمثُّل تلك القِيم والرُّؤى الانفتاحيَّة على إخوانهم في ديار الإسلام، تلك الرُّؤى التي انتهجها الحاج مالك شباز وأمثاله، حتى يبقى العُود الإسلاميُّ عودًا واحدًا قويًّا يستحيل على الأعداء معالجته وكسره، وحتى تبقى تلك المنارات الإسلامية وهَّاجة، وشاهدة على الغرب، والشعوب الأخرى، في عقر ديارها بأنَّ الإسلام دينُ التَّسامح والوسطيَّة، وأنَّه العلاج الشافي لأمراضهم الاجتماعيَّة.

أوَّلا: الإسلام في أمريكا والإطار الاجتماعي والديني

إذا كان جلُّ المؤرِّخين يقفون ببداية تاريخ أمريكا بالملاح كريستوف كولومبس (١٥٠٦-١٤٥١)، فإنَّ الحقائق التاريخيَّة المتضافرة قد برهنتْ على أنَّ كولومبس مسبوقٌ إلى اكتشاف أمريكا من قِبل المسلمين الإسبان المهاجرين، بل إنَّ كولومبس قد استعان بخرائط أولئك ومعلوماتهم في الإبحار إلى الشاطىء الأمريكي[٢].

أما في الجانب الأفريقي، فإنَّ المؤرخ المسلم ابن فضل العمري *صاحب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار* قد أورد في كتابه ذِكر الملك أبي بكر سلطان مالي عام (١٣١٢ م) الذي أبحر من شواطىء المحيط الأطلسي في غرب أفريقيا إلى خليج مكسيكو الأمريكيَّة[٣]. وتوجد مساندةٌ قويَّة لهذه الرِّواية لدى البرفسور Wiener Leo بجامعة هارفرد في دراساته عن أفريقيا واكتشاف أمريكا، إذ استعان بالعلاقات اللغويَّة الوظيفيَّة بين بعض لغات غرب أفريقيا ولغات السُّكان المحلِّيين في الشاطىء الآخر عند خليج مكسيكو. كما برهن الباحث Ivan V. Sertima بجامعة Rutgers نيوجرسي بدراساته المستفيضة على وجود سكان أفارقة معظمهم مسلمون في أمريكا قبل اكتشاف كولومبس للقارة الأمريكيَّة

وقد أورد هؤلاء الباحثون كثيرًا من القرائن والمرويَّات والوثائق التاريخية الدالَّة على أنَّ الإسلام قد حلَّ بالديارالأمريكيَّة منذ أن وطىء العبيد الأوائل تلك الأراضي، وظلَّ بينهم ـ بشكل أو بآخر ـ حتى ورثها الأجيالُ اللاَّحقة على الرغم من الاضطهاد، وحملات محو الهويَّة، و إرغام المسلمين على تغييردينهم، وأسمائهم، والتَّفريق بين الأسروالقبائل.. هذا، وقد عُرِف في تاريخ السُّود بأمريكا علماء مّمن وصلوا أمريكا في غضون ١٧٣٠، وفاجأوا الأمريكيِّين بمستواهم المعرفيّ، واستعان الباحثون ببعضهم في ترجمة بعض الوثائق، من أولئك: يارو محمد، وجوب بن سليمان، والأمين جاي، والشيخ محمود بقاقا، ومحمد علي بن سعيد، وأيوب بن سليمان ديالو، وعبدالرحمن[٤].

وعلى الرغم من إلغاء الرقّ، وتجارة العبيد والتلويح بشعارات الحريَّة والديمقراطيَّة بعد الحرب الأهليَّة الأمريكيَّة (١٨٦٥ _١٨٦١)، فإنَّ وضع السود الاجتماعي في الولايات المتحدة الأمريكيَّة خاصَّة في ولايات الشَّمال، لم يطرأ عليه تحسُّن ملموس، حيث فرض عليهم حظرالتَّجوُّل بعد الغروب في بعض المدن، ومُنعوا من دخول المطاعم، وركوب سيارات النَّقل الجماعي، وحرِموا من الخدمات الطبيَّة في المستشفيات، وفُصِل بينهم وبين البيض في الكنائس، والملاهي.. وقد كانت أيَّة معارضة أو احتجاج على هذا الوضع أو المناداة إلى المساواة تؤدّي بالمعارض إلى السجن، أو القتل أو أيّ شكل من أشكال التخويف على أيدي العصابات العنصريَّة التي أسَّسها البيض، والتي كانت تمارس أعمال العنف على مرأى ومسمع من الشرطة.

نتيجةً لهذه الحالة، شهدت بدايات القرن العشرين نشأة الكثيرمن الحركات القوميَّة في أمريكا خاصَّة بين السُّود، مثل حركة EIKS، وجماعة Aipha Phi Aipha، وتراوحت تلك الحركات بين متطرِّفة ضدَّ البيض، وأخرى معتدلة خاصَّة

لـدى الطّبقـة المثقّفـة. كمـا تراوحـت المرجعيّـات الفكريّـة لتلـك الحركـات بـين علمانيّـة، ووثنيّـة، و إسـلاميّة ومسـيحيّة، و إنْ كـان الغالـب علـى معظمهـا المـزجُ بـين تلك المرجعيّات الدينيّة.

أُولى تلك الحركات حركة مرقس غارفي Marcus Garvey التي أطلق عليها «الرّابطـة العالميّـة لترقيـة الجـنس الأسـود Universal Negro Improvement Associatation» التي نشطت منذ عام ١٩١٦، وهي حركة سياسيّة اجتماعيّة، دعا السُّود إلى تحرير أنفسهم من الظُّلم الاجتماعيّ. قويت حركتُه لكنها انحلت بعد نفي مرقس من الولايات المتحدة.

وثانيتها حركة «الهيكل المغربي المقدّس للعلوم Moorish Holy Science Temple»، التي أسّسها الكاريبي تيموثي درو (١٨٨٦ ـ ١٩٢٩) Thinothy Drew في مدينة Newark بولاية جيرسي. وتسمّى فيما بعد بالشريف درو علي، رافعًا نسبه إلى الأشراف بالمملكة المغربية، زاعمًا أنّ أصل السُّود في الولايات المتحدة من آسيا، وأنّهم ينحدرون من قبيلة كانت تسكن مكّة وتُدعى «شَباز»[٥]. كانت دعوته خليطًا من المعتقدات الدِّينية الشّرقيّة والمبادىء الاجتماعيّة، دعا السُّود إلى الارتداد عن المسيحيّة واعتبرها دين البيض الآريّين، وأمرهَم باعتناق الإسلام باعتباره ديانة أجدادهم الأصليّة. كمّا دعا إلى انفصال السُّود عن البيض في ولاية خاصّة بهم داخل الولايات المتّحدة، واسم خاصٍ يحملونه.

ادّعى الشريف درو علي النبوّة، وكتب كتيّبًا سماه (القرآن المقدس)، وهو ـ كما يصفه جاك كونراي ـ «مزجٌ غريبٌ لآيات القرآن الكريم، وجُمل من الكتاب المقدس، وكلمات مرقس غارفي، وقصص حول حياة يسوع يربط هذه العناصر كلها ببيانات وتفسيرات المتنبي (درو علي)»[٦]. وقد لاقت دعوة درو علي قبولا موسّعًا، وراقت أذواق الطبقة الكادحة من السود في أوائل القرن العشرين، وكانت لها هياكل ومعابد نشطة في ديترويت، وشيكاغو، ونيويورك، وغيرها من

الولايات في أمريكا، وراجت عقائد الطائفة بسرعة وقوِيت حتى وفاة المؤسس ١٩٢٩. وعلى الرغم من الانحرافات الواضحة في تعاليم درو علي وبُعدها عن الإسلام الصحيح، ومزجها بين الشَّعائروالعقائد الإسلاميَّة والمسيحيَّة، فإنَّها تعتبر الواجهة الأولى التي أيقظت في الأمريكيّين السُّود الشعور بالاعتزاز بهويَّتهم، وتقوية الوعي بضرورة العودة إلى الإسلام، والارتباط بأرض أفريقيا وآسيا.

ثالثة تلك الحركات حركة «أمَّة الإسلام» التي ظهرت في غضون (١٩٣٩) على يد والاس فارد محمد، في أحياء ديترويت الشعبيَّة، وكان بائعًا متجوّلًا يتاجر في الأقمشة والملابس. بدأ دعوته بالانخراط في الأُسَر، وتذكيرالسُّود بأصولهم الأفريقيَّة، مؤكِّدًا لهم أنَّه جاءهم ليحملهم على «اكتشاف الذَّات». بعد كسبه لجماعة وتأسيس منظمته، وخروجه من الدَّعوة السريَّة، أسَّس مدارس للبنين والبنات، وأنشأ مؤسَّسات تجاريَّة، ومعامل خاصَّة للسُّود.

بحلول عام ١٩٣٤، اختفى فارد محمد فجأةً، وكان قد أوكل أمرالحركة إلى روبرت (إليجا) بول (١٨٧٥ _ ١٩٧٥) Elijah poole فكان أوَّل ما قام به إليجا ادِّعاء الألوهيَّة لفارد محمد، وادِّعاء النبوَّة والرسالة لنفسه[٧]، وسمى الحركة «أمَّة الإسلام الإسلام المفقودة ـ الموجود في مجاهل أمريكا الشمالية» The Lost-found IsLam in the wilderness of North America Nationof وزعم بأن الرَّجل الأبيض هو الشَّيطان نفسُه المذكورفي الكتب السماويَّة. ونشط في تأسيس أماكن عبادة لأتباعه وسماها «معابد / هياكل Temples»، ولم يكن فرق كبيربينها وبين الكنائس. كما طوَّرالمؤسَّسات التجاريَّة والمصانف وأغرى البسطاء بالوعود الإلهيَّة للجنس الأسَود[٨].

عرفت حركة إليجا محمد عصرها الذهبي أيام الحاج مالك شباز، ولما توفي إليجا محمد، تولَّى زعامة الحركة ابنة والاس (وارث الدين) الذي أدخل

تصحيحات جذريَّة في تنظيم الحركة وفي تعاليمها حيث أبطل دعاوى أبيه التحريفيَّة، وأعلن عن اتِّباعه لمنهج أهل السُّنة والجماعة في الاعتقاد والعمل، هذا، وقد انفصلت عن والاس جماعةٌ بزعامة لويس فرخان، ملتزمةً بالدعاوي القديمة، وبالإيمان بنبوَّة إليجا محمد وتعاليمه وعقائده الباطلة.

ومهما يكن من مآخذ على هذا التَّنظيم في عهده الأوَّل، فإنَّ من الملامح الإيجابيَّة فيه قوَّة الجانب الرُّوحي، ونجاحه في شحن الأتباع بديناميَّة التَّطهير الذاتي، والتمسك بالهويَّة، والاحترازالمفرط من الذَّوبان في الثقافة الأمريكيَّة.

ثانيًا: مالكولم، المولد والنَّشأة

وُلِد مالكولم ليتْل بتاريخ ١٩ مايو ١٩٢٥ في أوماها ولاية نبراسكا. والده (Earl j Little) من مواليد جورجيا، ووالدته (Lousie Norton)، نازحة من بلاد جزر الكاريبي. وهو الابن الرابع من بين سبعة أبناء رزِقت بهم «لُوِسا»، وله ثلاثة إخوة آخرين من أبيه رُزِق بهم في زواجه الأوَّل قبل زواجه بـ«لويسا» أمِّ مالك. وقد صادف مولد (مالكولم) وصباه تصاعد الأزمة العنصريَّة، واضطهاد السُّود في الولايات المتحدة، وكان صباه مهدَّد بشبح العنصريَّة البيضاء ضد السُّود في الولايات الشَّمالية، وضدَّ أتباع حركة مرقس غارفي التي كانت أسرته زعيمة إحدى تجمُّعاتها؛ إذْ كان أبوه داعية (غارفي) مشهور، حازاللَّقب الشَّرفي «الكاهن = Reverend» كما حازلقب «الرَّشيد = Elder» لتزعُّمه الطائفة الغارفيَّة بأوماها، ونشاطه في تنظيم أمورها، و إلقاء الخطب.

يتَّضح من سيرة حياة (مالكولم) وتصريحات إخوانه أن الإيديولوجيَّة الغارفيَّة وتعاليمها كانت الموجِّه لحياة الأسرة، وسلوك أفرادها، فإضافةً إلى تزعُّم الأب للطائفة الغارفيَّة، وكون الأم محرِّرة لأخبارالجماعة ونشرتعاليمها في بعض الصُّحف، حرص كلٌّ منهما على تلقين الأبناء مبادىء الحركة، فكان الوالد

يصطحب مالكولم وأخوَيه إلى المعبد حيث يلقي الخطب، ويلقِّن الأتباع تعاليم الطائفة. أما الأمُّ، فكانت إذا اجتمعت الأسرة حول النار بعد العَشاء، تحكي للأطفال عن ماضي أجدادهم السُّود العريق، وتنفث فيهم روح الاعتزاز بعنصرهم الأسود.

ولا شكَّ أن هذا الجوَّ النضالي الذي تفتَّح فيه (مالكولم) على الحياة، قد انطبع على تفكيره، ووجَّه الكثيرَ من تحرُّكاته وتصرُّفاته خلال مختلف مراحل حياته. و إذا أخذنا في الحسبان الوسطَ العامَّ في مدينة Lansing، والأسر الأخرى في مجتمع السُّود، أدركنا مدى الأثر الإيديولوجي الذي كان تربةً خصبةً لنماء الوعي القوميّ والديني لدى جيل مالكولم من أبناء الأمريكيِّين السود.

ومن الأحداث التي شحذت نفسيَّة مالكولم وحفرت في ذاكرته أسى دفينًا، وكراهيَّةً للبيض منذ نعومة أظفاره ما رواه في سيرته عن حادثة إحراق منْزل أسرته على يد عصابة «كو كلوس كلان» العنصريَّة في أوماها[٩]. حيث أتى رجال مقنَّعون ذات ليلة؛ فكسَّروا النَّوافذ، وشعلوا النار في المنْزل، واطلقوا عبارات عنصريَّة، وطالَبوا الأسرة بالهجرة من بين أظهُرهم. وقد لخص مالكولم هذه الحالة بقوله: إن مولدَه وصباه كان في الرُّعب والخوف[١٠].

والأمرُ أنَّه حين أشعل البيض النار في المنزل، وهرعت الأسرة للنجاة بنفسها، يقول مالكولم: «جاء رجال الإطفاء والبوليس البيض، ووقفوا يتفرَّجون على المنْزل المشتعل إلى أنْ أتت النار على المنْزل بأكمله»!

وفي عام ١٩٣١ حين كان مالكولم في سن السَّادسة تفاقمت المأساة حين عُثِر على جثة والده طريحًا على سكة حديديَّة، وكان تقرير البوليس أنَّ قطارًا صدمه، بينما أصرَّ مجتمع السُّود أنَّه ضُرِب وجُرح قبل أن يلقى تحت عجلات

القطار. يقول مالكولم: «كنت في السادسة من عمري آنذاك، لكنَّني كنت قبلُ قد تعلَّمت أنَّ كون الإنسان أسودَ في هذا البلد مثار مشاكل»[11].

بعد موت عائل الأسرة وكاسبِها، ظلَّت الأمُّ تجاهد وتكدُّ لتربية الأطفال وتأمين حاجاتهم، لكن المناخ العنصريَّ لم يكن ليرحم الأرملة المغلوبة وأيتامها الصِّغار، فلم يكن من اليسير الحصول على عمل منزلي لدى البيض، ولم ينفع إيقاف أخوَي مالكولم الحدَثَين الدِّراسة ومساعدة الأمِّ في طلب لقمة العيش، ومع تزايُد وطأة الفقر، والمطالب الماليَّة كانت الأم تشعر من يوم لآخر بحدَّة النَّفس، وزيادة القلق على مصيرها وعلى مصير أبنائها. هذا، وقد زادت استفزازات الجيران البيض للأسرة في حدَّة نفس الأم، حتى وصَموها بالاضطراب النفسيِّ، ومن هنا تدخَّلت جمعيات الرعاية الاجتماعيَّة، لأخذ الأطفال وتوزيعهم على مراكز رعاية الأطفال؛ فكان ردُّ الأمِّ الرفض القطعي لهذا التفريق بينها وبين أبنائها، ولم يزل رجال الرعاية بنفوذهم الحكومي حتى انتزعوا منها أبناءها، وكان ذلك إيذانًا باضطراب نفسيٍّ محقَّق للمرأة، أدخِلت بعدها في مصحَّة نفسيَّة وظلتَّ بها أكثر من عشرين عامًا.

بعد أن تفرَّق الأطفال أيدي سبأ بين مراكز رعاية الأطفال، وُكِّل مالكولم إلى أسرة أفريقيَّة أمريكيَّة، ومن ثم إلى مركز لرعاية الأحداث في ميشغان، ولم يرُقه المكان بأيِّ حال؛ إذ كان هو الأسودَ الوحيدَ بين الأطفال البيض، وكان بعض المربيّن البيض يستفزُّونه بتعليقات عنصريَّة متكررة، وكان سبب خروجه من إحدى تلك المراكز، وهروبه من الدِّراسة سخرية أحد المرِّبين منه حين ذكر له مالكولم أنَّ أمنيته أن يصبح محاميًا، فنصحه المعلِّم بأن يختار مهنة النِّجارة؛ لأنَّ المحاماة لا تنسجم واقعًا مع «زنجي».

انتقل مالكولم بعد ذلك إلى السَّيدة «إيلاَ» Ella، وهي أخته من أبيه، وقد كانت سيِّدةً فاضلةً محترمة، قال عنها مالكولم: إنَّها أول امرأة سوداء رأى فيها

الفضل والثِّقة والاعتزاز بنفسها.. قامت هذه المرأة بدور فعَّال في مساندة مالكولم في شتى مراحل حياته، وكان أكبر تلك المواقف إمدادها إيَّاه بالمال لأداء فريضة الحجِّ مما كان له الأثر المباشر في التغيير الجذريّ في حياة مالكولم وفكره، وحركته الدينية.

وفي شوارع ديترويت، اجتمع مالكولم ليتل بمجموعة من الشباب السُّود المتسكِّعين في البارات، وعلى أبواب المتاجر، وفي الأزقَّة المظلمة، وكان من أهمِّ أنشطتهم بيع المواد المختلفة من أحزمة، ومناديل يد، وسجائر، وعطور، ومسح أحذية... كانت تلك المهن الشَّريفة لديهم، لأنَّ النشاط الفعليَّ لدى بعضهم كان في تهريب المخدرات، والسَّطو على المنازل، والسَّمسرة بين البغايا وزبائنهن.

سرعان ما انخرط مالكولم عمليًا ونفسيًا في هذا المجتمع وحاز لقب «أحمر ديترويت Detroit Red»؛ فبدأ يلبس على طريقة الـ«هيبْ»: بدلة طويلة، حزام ضيِّق، وقبَّعة ذات ريش طويلة، وصبغ الشَّعر باليود الملوَّن والملمِّن، وتدخين الأفيون.. وبالجملة، كان مالكولم «قد فقد ـ كليًّا ـ شعورهَ بهويّته، وفقَدَ الشُّعور بذاته»[١٢]. ووصَف مالكولم تلك الحالة التي ألجأت الآلاف من أمثاله من السُّود إلى مثل هذا العيش والتردي بقوله: «حين تنخرط في مجتمع الغيتو، مثلما كنتُ أنا، فإنَّك تدخل في عالَم الوحوش، ويصبح البقاء للأقوى قانونًا محتومًا»[١٣].

تعدَّدت نشاطات مالكولم غير القانونيَّة حين عمله خادمًا في إحدى المراقص الصَّاخبة في حيِّ هارلْم؛ حيث كان المكان ملتقى تجار الأفيون، ولاعبي «الحظ»، وسماسرة البغايا، وعصابات السَّطو على المحلات التجاريَّة، وهكذا وجد مالكولم نفسَه منجرفًا في تجارة الأفيون التي درَّت عليه الأرباح الطائلة.. «ظللتُ أضاعِف أرباحي، وبضاعتي، وقلَّما كنت أنام.. كانت في جيبي رزمة ضخمة من المال..»[١٤]. وقوِيت شوكةُ مالكولم حتى كوَّن عصابة إجراميَّة للسَّطو على

البيوت وسرقة المجوهرات، تألَّفت تلك العصابة من صديقه «شُورْتي»، ورفيق آخر، ومن بِنتَين بيضاوَين: صوفيا وأختها.

وعلى الرغم من وصف مالكولم هذه الفترة بحياة «الأوحال»، فإنَّ ما يُحمد لهذه الفترة في حياة مالكولم تعميقه لخبرته بحياة عامَّة الناس، ووقوفه ـ في كلِّ دقيقة من تلك التَّجربة ـ على جروح المجتمع الدَّامية، من تشرُّد، وبطالة، وظلم، وشقاوة، وسرقة، ودعارة، وسطو على الأبرياء، واحتيال، و إدمان مخدرات، وكل ما يتَّصل بذلك من أدواء اجتماعيَّة، يقول مالكولم: «كان أكبر زبائني المبشِّرين، وزعماء الحركات الاجتماعيَّة، ورجال الشُّرطة، ومختلف المسؤولين عن حياة الآخرين ومصيرهم»[١٥] ولا شكَّ أن هذه التَّجربة الحيَّة كان لها أثرها القويُّ في حدَّة حساسيَّة مالكولم لعلاج تلك الأدواء، وفي تعميق معرفته بنفسيَّات «المرضى» و«الضَّحايا» و«الذِّئاب» ومعرفته للدَّواء المناسب لكل حالة.

ثالثًا: السِّجن والاهتداء إلى الإسلام

ألقي القبض على (مالكولم إكس)، وهو في الواحد والعشرين من عمره، بعد محاولته إصلاح ساعة يد ثمينة سرقها من أحد البيوت، وحُوكم وأُدين بتهمة السَّطو المسلَّح على المنازل، والحيازة غير القانونيَّة للسِّلاح الناري، وزُجَّ به في سجن شارلستون عام ١٩٤٦ لقضاء عشر سنوات، فكانت تلك الحادثة كفيلةً لأنْ يعود (مالكولم) إلى نفسه ويثوب بعض الشيء، ويحدِّث نفسَه عن أحوال بني جلدَته السُّود، ووضعِهم في المجتمع الأمريكيِّ العنصريِّ. بل إن (مالكولم) ـ و إنْ كان يعترف بجُرمه ـ رأى أن شدَّة العقوبة لم تكن بفداحة الجُرم بقدر ما كانت بسبب عشرته للبنت البيضاء، صوفيا وأختها، و إشراكه إيَّاهما في عمليَّات السرقة مما أثار ثائرة القاضي عليه. وقد صرَّح القاضي لمالكولم بذلك لدى إسماعه إيَّاه قرار

المحكمة بقوله: «ليس لك في بنات البيض سبيل، وسوف يلقِّنك هذا درسًا في الابتعاد عنهنّ»!

وعلى كلٍّ، فإن مبادرة عائلة (مالكولم)، ودعوتهم إيَّاه إلى «التَّوجُّه إلى القبلة والصَّلاة لله» جاءت في أوانها حين بدأ مالكولم يشعُرأنَّه بحقٍّ رهينُ محبَسَين: سجن جسدي، وسجن روحيٍّ، فكانت دعوة إليجا هي المخرج لانتشاله ـ أوَّلًا ـ من أشدِّ السِّجنَين، ألا وهو السِّجن الرُّوحي.

بقي (مالكولم) في سجن «نورفولك» حتى مارس ١٩٥٠ حين حُوِّل مرَّة أخرى إلى سجن شارلستون بتهمة العصيان، ولكن السَّبب الحقيقيَّ وراء هذا التَّحويل كان للحدِّ من تأثير(مالكولم) على السجناء، وقد جاء في تقريرالسِّجن ما يؤكِّد ذلك إذ قيل عنه: «مراسلاته ترتكزعلى العقيدة الإسلاميَّة، وعلى الكُره الشَّديد للجنس الأبيض»[١٦].

بالعكس، لم يحد هذا التَّحويل من نشاط (مالكولم) الدَّعوي، بل استمال إلى الإسلام زمرةً من رفاقه كالأخوَين: أسبورن ولوروي LeRoy & Osborne، والأخ مالكولم جارفيس Jarvis، وقد كان تصرُّف تلك العصبة من السُّجناء ملفتًا للنَّظروالاهتمام منذ عهدها الأوَّل بسجن شارلستون حيث طالب هؤلاء إدارة السِّجن بأن تكون وجباتهم اليوميَّة حسب النِّظام الغذائي الذي وضعه إليجا محمد، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير، وطالبوا بأن يوضعوا في زنزانات مواجهة للقبلة.

من جانب آخر، فإن (مالكولم) قد ألفت إليه الأنظاربملَكته الخطابيَّة، فكان يناظرالأساقفة الزَّائرين للسجن، ويبهتهم بملاحظاته، ويحرجهم باعتراضاته الكثيرة على الإنجيل، مثل اعتراضه على الصُّورة النمطيَّة التقليديَّة للمسيح حيث يُصوِّره البيض بعيون زرقاء، وشعرذهبي، وبِشرة بيضاء.. فقد أفحم

(مالكولم) مناظريه بأنَّ المسيح كان أسوَد ملوَّنًا، أو على الأقلِّ، كان من شعوب الشَّرق الأوسط لا مِن الجنس الآري[١٧].

وهكذا، لم يكن (مالكولم) يدع فرصةً إلاّ ويصدع فيها بإسلامه، ويعلن عما يراه الحقَّ. وظهرت بوادر شخصيَّته القويَّة منذ مكثه في السِّجن، ووقوفه في خندق المظلومين. ففي أبريل ١٩٥٠، كتب إلى مفوّض السجن السيد ماكدويل McDowell خطابًا حادَّ اللَّهجة دفاعًا عن أخ مسلم أودع زنزانةً منعزلة بسجن نورفيلك. ابتدأ (مالكولم) خطابه بقوله: «بسم الله العليم الحكيم، الحق الحيّ، وباسم نبيّه المقدس.. السيد إليجا محمد... (!!)»[١٨] وأثقل الخطاب بالوعيد للكفرة والظالمين، وندَّد بالذين يظلمون الناس لا لذنب إلاَّ لأنَّهم يصلون مستقبلين الشَّرق (القبلة). وكتب مرَّة أخرى خطاب احتجاج إلى المفوض نفسه، يندِّد فيه بأحد الموظفين الذين منعوا أحد المسلمين من الانخراط في برنامج محو الأميَّة، ولم يفت (مالكولم) في ذلك الخطاب أن يسخر من حالة التَّردي الخلقيّ في السِّجن حيث يحظى أصحاب «اللُّواط» بما يسهِّل لهم شذوذهم، ويُمنع المسلمون المنضبطون من حقوقهم الطبيعيَّة.

إجمالًا، يمكن القول: إنَّ مرحلة السِّجن كانت السَّانحة التي استغلَّها (مالكولم) أحسَن استغلال لتشكيل نفسه ثقافيًا وعلميًّا؛ فأكبَّ على مكتبة السجن الداخلية، والتحق بفصول تكوينيَّة في المراسلة، ومهارات التَّعبير الكتابي، ونمَّى ذخيرته اللغويَّة بحفظ معجم لغويٍّ ضخم. أما من الناحية الثَّقافية، فقد عكف على كتب التاريخ والحضارة الأفريقيَّة والأمريكيَّة، والفلسفات الشرقيَّة. كما نمَّى ملَكته الخطابيَّة بالانخراط في فرقة الخطابة والمشاركة في المناظرات.

و إلى جانب المطالعات الكثيرة فإنَّ مالكولم قد وجد في السِّجن بعض النُّزلاء ممَّن هم على قدر عال من الثَّقافة والمعرفة، وتعلَّم منهم الكثير، ومن أولئك الذين

أشاد بهم في سيرته الذَّاتية، الشاب الأسوَد الذي أشارإليه باسم Bimbi يقول عنه: «كان بيمبي يكسب كلَّ نقاش يخوضه، وكان الرَّجلَ الأوَّلَ الذي رأيتُه يفرِض احترامًا مطلقًا بكلامه». لكن بيمبي كان ملحدًا، وكان تعلُّق مالكولم به بسبب حديثه العميق في الأديان، وقد سبق بنا أنَّ والدة مالكولم قد أرضعته و إخوانه على التَّفتح للمناقشات الدِّينية. وهكذا، بالمطالعات الطَّويلة، والتعلم الذاتي، عالج مالكولم داءَ الجهل في نفسه، لإدراكه أنَّ الجهل هو السَّبب الأساس في سلوكه الإجراميّ... صرَّح بهذه الحقيقة في خطاب له إلى الضابط مأمورالسجن حين طلب التَّحويل إلى سجن آخر، قال: «إن السبب الأساس في طلبي الانتقال إلى سجن نورفيلك رغبتي في تثقيف نفسي، فالتَّسهيلات التربويَّة هنالك غيرموجودة في غيرها، فلوأني كنت أكملتُ تعليمي لما كنت الآن قابعًا في الحبس. إنَّني اليوم أقضي عشرسنوات جزاء جريمتي الأولى، إنَّ ذلك لا يجرح كثيرًا.. لقد أدركتُ خطئي منذ أمد بعيد، لأنَّه من المستبعَد أن يسطو رجلٌ متعلِّمٌ على منازل الناس»[١٩].

ظلَّ «مالكولم» بهذا السِّجن حتى أغسطس ١٩٥٢، حيث أطلق سراحُه، وانتقل بعد ذلك إلى ميشغان مع أخيه ويلفرد Wilfred. وعلى الرغم من عدم اجتماع (مالكولم) بقائده إليجا محمد وجهًا لوجه منذ إسلامه إلى خروجه من السِّجن (في أغسطس ١٩٥٢)، فإنَّ العلاقة بين الرَّجلين كانت قد توطَّدت عبرالمراسلات الأسبوعيَّة المنتظمة بينهما، استطاع إليجا محمد من خلالها أن يلقِّن (مالكولم) فلسفته الدِّينية، وأثبت (مالكولم) كذلك نجابته و إخلاصه وجدارته بحمل لواء حركة إليجا.

مالكولم إكس والانخراط في (أمَّة الإسلام)

ما كاد المريد النَّبيه (مالكولم) يخرج من السِّجن، ويلحق بقائده، ويضيف إليجا على اسم مالكولم اللاِّحقة «إكس» إلاّ وترقَّى في سلك التَّنظيم، وشهدت

الحركة كذلك ـ آنذاك ـ عصرها الذهبي وتطوُّرها المَطّرد في عدد الأتباع ونوعيَّة التنظيم.

وعلى سبيل المثال، فقد كان من عادة وزراء الحركة في ديترويت أن يقصدوا مدينة شيكاغو مقرَّ الحركة العام في مناسبة الاحتفال بعيد الحركة السنويّ للاستماع إلى إليجا، وكانت القافلة الأولى التي أقلَّت (مالكولم إكس) مع بقيَّة وزراء الحركة إلى شيكاغو عام ١٩٥٢ سيارتَين. وما إن باشر (مالكولم) عمَله في الدَّعوة للحركة، واستمالة الأتباع الجدد من أحياء السُّود الفقيرة (الغيتو)، ومن البارات، وزوايا الزِّقاق المظلمة، وعلى أبواب الكنائس، وفي تجمُّعات السُّود.. إلاّ وتضاعف أتباع الحركة قبل أن يحول الحَوْل، فإذا (مالكولم) يحدو قافلةً من السَّيارات إلى شيكاغو عام ١٩٥٣ مجموعها ٥٢. فلم يكن من القائد إليجا محمد إلا المسارعة في تعيين (مالكولم) في مرتبة «وزير كامل Full Minister» بالهيكل رقم (١)، وهو الهيكل الأوَّل الذي أسَّسه المعلم فارْد محمد نفسُه.

ومنذ أن تفرَّغ (مالكولم) للعمل بحركة (أمَّة الإسلام)، أصبح يقضي ليلَه ونهارَه في تجنيد الأتباع الجدد، و إقامة المحاضرات، وتأسيس الهياكل (المساجد) الجديدة، وكثُرت أسفاره من أدنى الولايات إلى أقصاها، وأثمرتْ تلك الجهود الدعويَّة الجبارة، وشخصيَّة (مالكولم) المؤثِّرة في تضخُّم أتباع الحركة من حوالي ٤٠٠ عضو زمَن التحاق (مالكولم) بالحركة، إلى حوالي أربعين ألف عضو.

هذا، وكان من الملامح المميِّزة للحركة ـ قبل عهد مالكولم ـ تمركُزها على الطَّبقة الفقيرة من العُمال في المصانع وسكان الأحياء الفقيرة المنعزلة، لكنْ بحلول عام ١٩٥٧، كانت حركة (أمَّة الإسلام) قد استهوت كثيرًا من المثقَّفين والأكاديميّين، ورجال الأعمال، ورجالات الفكر والأدب السُّود.

وبالمِثل، فإن المستوى الأيديولوجي للحركة فرض حضورَه في المجتمع الثقافيّ الأمريكي، وجعل مختلفَ الطَّوائف الدينيَّة والسياسيَّة والفكريَّة تعير (أمَّة

الإسلام) وطروحات الوزير مالكولم أُذنًا صاغيةً، واعتبارًا خاصًا. وفي تلك الفترة (١٩٦٩-٦٠) اكتسبت (أمَّة الإسلام) شهرةً محليَّةً وعالميَّة موسَّعة، وذلك بمشاركة (مالكولم) في المناظرات والمحاورات الإذاعيَّة والتِّلفزيونيَّة، و إلقائه الكلمات في مدرجات المعاهد والكليَّات، وقيام بعض الصُّحف والمجلاَّت العالميَّة الشهيرة باستطلاعات متكرِّرة عن الحركة، أمثال مجلة: لايْف، ولوكْ، ونيوزويك، ورَايْدِرْ دايجِيستْ[٢٠]. ونجحت أجهزة FBI في تلك الفترة في دسّ بعض عيونها في الحركة؛ للتجسُّس عليها وعلى حياة مالكولم الخاصَّة، فكان من تلك العيون أحد حرَس مالكولم المقرَّبين.

ومن المعارك الفكريَّة العنيفة التي خاضها (مالكولم إكس) في تلك الفترة معارضته لدعوة الاندماج، وسياسة السَّلام التي كان يروِّج لها المسيحي الأفرو - الأمريكي مارتنْ لوثر كينغ (Martin L. King, 1964)، حيث احتجَّ مالكولم أنَّ النِّظام السِّياسي والاقتصادي الأمريكيَّ مؤسَّسٌ على التَّمييز العنصريّ والظّلم في أساسيَّاته وتفاصيله، وأن كلَّ اندماج في مثل هذا الجهاز لن يزيد إلاّ في تعاسة الفقراء والمغلوبين من طبقة السُّود العاملة. واعتبر مالكولم ـ كذلك ـ المسيحيَّة جهازًا من أجهزة الاستغلال في يد الأمريكيّ الأبيض، ونفى ملاءمتها روحيًّا للرَّجل الأسوَد. يقول: «المسيحيَّة دين الرَّجل الأبيض، فالإنجيل في يد الرجل الأبيض وتفسيره الخاص له، قد كان السِّلاح الأيديولوجي الأفعَل لاستعباد ملايين الناس غير البِيض»[٢١] وعضَّد (مالكولم) موقفه ذلك بعقيدة «شيطانيَّة الأبيض»، والعداوة الحتميَّة بين الأبيض والأسوَد التي قال بها المعلم فارْد محمد. لكن (مالكولم) ألْمح إلى أنَّه لا يقصد بـ«شريَّة الأبيض» أفراد البيض بقدرِما يقصد بها جنسهم، «لسنا نعني أيَّ فرد من البيض، بل إننا نعني المجموع العامَّ لتاريخ الرجل

الأبـيض، وقسـوتَه الجماعيَّـة، وشـرورهَ، وجميـع تصـرُّفاته الشـيطانيَّة ضـدَّ غيـر البيض»[٢٢].

وبقيام الحركات التحرُّرية في حقبة الستينيات في أفريقيا وآسيا، ودعوتها إلى الاستقلال، وخَوض بعض الشعوب (الفيتنام مثلًا) حروبًا ضروسًا ضدَّ القوى الاستعماريَّة... غدت دعوات (مالكولم) وحركته أكثر مصداقيَّة، وأكثر قوَّة في إقناع الجماهير بعقيدة «شيطانيَّة البيض». ومنذ تلك الفترة، أصبحت حركة (أمَّة الإسلام)، تكتسب بُعدًا دوليًّا، ومساندةً خارجيَّة من لدُن زعماء الحركات التَّحرُّرية في أفريقيا وآسيا، وجزر المحيط الهندي الغربيَّة، وكان (مالكولم) بالطَّبع مركزَ الضَّوء في هذا الاعتبار.

جديرٌ بالذّكر أنَّ قائد الحركة الأعلى إليجا محمد، على الرُّغم من ارتياحه بتطوُّر الحركة، وتضاعُف أعداد الأتباع لم يكن راضيًا بأن يسلك (مالكولم) بالحركة بعدًا انفتاحيًّا دُوليًّا، أو ينحوَ بها منحىً إيديولوجيًّا، وكان ذلك ـ بالذَّات ـ بداية الخلاف بينه وبين مريده المخلص. بل بينه وبين الجيل الشَّاب من أتباعه ممَّن كانوا يشاطرون (مالكولم) وجهتَه الانفتاحيَّة.

ومن ناحية أخرى، فإنَّ الحركة قد شهدت أزمتها الداخليَّة منذ عام (١٩٦١) حين تألَّق نجم (مالكولم)، ودبَّ الحسد في نفوس السِّلك الوزاريّ داخل الحركة، فأُشيع أنَّ مالكولم يريد أن يستأثر بالحركة، وأنَّه يؤلِّب بعض وزراء الحركة الشَّباب على مركز سلطةِ الحركة في شيكاغو... ويبدو أن بعض الوقائع تواطأت في تقوية تلك الإشاعات في نفس إليجا محمد، منها تمرُّد ابنه والاس محمد عليه عام ١٩٦٣، ووصفُه تعاليم والدهِ بالضَّلال والخروج عن الإسلام الصَّحيح، ولما أبعِد عن الحركة، ووُصِف بالنِّفاق، لم يشجبْ (مالكولم) فعلته، ولم ينطقْ في حقِّه بسوء.

إضافةً إلى ذلك، فإنَّ فضيحة إليجا محمد الجنسيَّة عام ١٩٦٣ جاءت لتعصف بالكثير من هالة القداسة التي كان (مالكولم) قد أضفاها على قائده الرُّوحي، ولتُرغمه على إعادة حساباته في قيادة الحركة، والشُعور بتأنيب الضَّمير في سَوق الجماهير المتحمِّسة إلى مصير غير مأمون تحت قيادة إليجا؛ فبدأ يكرِّس جهودَه في المشكلات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة لأتباع الحركة، ويوسِّع اهتماماته بالعالَم الخارجيّ.

كان اتِّساع الخَرق وعكْر الصفو بين (مالكولم) ومعلِّمه إليجا في أواخر عام ١٩٦٣، حين اغتِيل الرئيس الأمريكي جون كنيدي، وسُئِل (مالكولم) عن رأيه في هذا الاغتيال؛ فأبدى مالكولم شماتته بكنيدي مشيرًا إلى أنَّ الدَّهر قد أنصف منه، ولقيَ جزاءه في تواطؤ حكومته في سلسلة من الاغتيالات، مثل اغتيال الرَّئيس Patrice Lumumba والأمريكي Medgar Evers وغيرهما.. وقد كان هذا التَّصريح الجريء سببًا في تبرّي إليجا منه، وعزْله عن وزارة الهيكل رقم (٧) بنيويورك، ومنعه عن الحديث باسم الحركة لمدة (٩٠) يومًا. لكن (مالكولم) لم ينتظر انقضاء العدَّة، بل أعلن انفصالَه عن الحركة وتعاليمها العنصريَّة.

ومن المعلوم، أنَّ إليجا محمد كان على يقين بانتهاء فعاليَّة «النُّسخة الإسلاميَّة» التي قدَّمها للأمريكيِّين السُّود، وعدم صلاحيَّتها لتطلُّعات الجيل الجديد، غير أنَّ انفصال مالكولم المعلن عن حركته كان صفعةً قويَّة، وتهديدًا مباشرًا لزوال ملكه، وأنَّ ذلك سوف يعصف بالعرش الذي بناه لنفسه على مزاعم غير ملتئمة مع الواقع والحقيقة، فعقيدة نبوَّة إليجا، وعقيدة حرب الهرمجدون التي يهلك الله فيها البيض، وتحلُّ مملكة السُّود، والدَّعوة إلى إعطاء السُود ولايةً خاصَّة بهم في أمريكا... كلُّ تلك الدَّعاوى كان الدَّهر قد عفا عليها.

و إضافة إلى مالكولم، فقد رأى إليجا سلسلة من الاعتراضات المتكرِّرة والتَّمرد على تعاليمه وادِّعاءاته خاصَّة لدى أقرب الناس إليه، وأولاده ممَّن يقفون ـ عن كثب ـ على خبايا حياته وتصرُّفاته.. خرج عليه ابنه والاس محمد أكثر من مرَّة، وخرج عليه حفيده حسن شريف في ١٩٦٤، وخرج عليه ابنه أكبر محمد عام ١٩٦٥ وقد أشاد كلُّ أولئك بمالكولم، ورفضوا النَّيل منه، وسمَّى أكبر محمد إسلامَ والده بـ«صناعة محليَّة» (homemade) وأنَّه لا يعكس الصُّورة الأصلية للإسلام.

منظمة «مسجد المسلمين المتحد Muslim Mosque Inc»

في مارس ١٩٦٤ أعلن (مالكولم) انفصاله عن (أُمَّة الإسلام)، وتأسيسَه لمنظمة خاصَّة باسم «مسجد المسلمين المتحد»، وأنَّ منهجه المنهج الإسلامي السَّلفي، ودعا جميع المسلمين إلى العمل معه من أجل رفعة الإسلام، وأسَّس هيئة سياسيَّةً أخرى باسم: الوحدة الأفرو ـ الأمريكيَّة Afro - Amerecan Unity.

كان الهدف من تأسيس تلك المنظمة جمع الأمريكيِّين السود .بصرف النظر عن أديانهم .للعمل مجتمعين لتحقيق حقوق الإنسان. وعلى ذلك، فإنَّ (مالكولم إكس) رجع عن مواقفه المعادية للبيض؛ إذْ دعاهم إلى العمل في مجتمعاتهم لمحاربة صُورَ الظُّلم، والعمل لتحقيق الأخوَّة الحقَّة بينهم وبين السود، غير أنَّه لم يفتح منظمته الفتيَّة للبِيض، معلِّلًا ذلك أنَّ تحقيق الأخوَّة بين البِيض والسُّود لا يتمُّ إلاّ بتحقيق الاتِّحاد والتعاون بين السود أنفسهم[٢٣].

وواضحٌ من هذا الإطار أنَّ جميع المقدِّمات كانت تنبىء بأنَّ (مالكولم) يخطِّط لحركة عالميَّة ذات شأن خطير في المطالبة بالحقوق الإنسانية، فَمِن دعوته إلى الوحدة الأفريقيَّة (Pan - Africanism) انطلق إلى المطالبة بحقوق شعوب العالَم الثَّالث، والاهتمام بـ«الأخوة» في أمريكا اللاَّتينية، و«الأخوة» الصِّينيين.. ومن تصريحاته الشَّهيرة قوله: «ينبغي على الرَّجل الأسوَد الأمريكي أن يدرك أنَّ على

عاتقه مهمَّة كبرى في استدعاء الولايات المتحدة الأمريكيَّة للامتثال أمام محكمة الأمم المتَّحدة بتهمة أساسيَّة في خرق حقوق الإنسان»[٢٤].

ومن الخطوات الناجحة في تلك الفترة تكثيف مالك أسفاره ولقاءاته بالعلماء، والمؤسَّسات الإسلاميَّة، وبالزُّعماء والقادة في أفريقيا وآسيا، فزارغانة، ومصر، والسودان، والتقى السفراء من مختلف البلدان.

والجديرذكره أنَّ مالك في ظلِّ جماعة (أمَّة الإسلام) لم يكن بمقدوره الانفتاح على الجماعات الدينيَّة والسياسيَّة الأخرى خارج الولايات المتحدة؛ إذ كان من سياسة إليجا محمد الحفاظ على جماعته داخل «شرنقة» مغلقة تمنعها من الاختلاط بالخارج وتبادل الآراء. وقد صرَّح مالك بذلك في مقابلة منشورة له بصحيفة «صونداي غلاٰندر SundayGlender» الجامايكيَّة، قال: إنَّه طالما تاق إلى زيارة البلدان الكاريبية لكنَّ قائده لم يكن ليسمح له بذلك، قال: «بصفتي مسلمًا أسوَد، وفي حركة المسلمين السُّود، لم يكن بمقدوري السَّفرإلى هناك (الكاريبي)؛ لأنَّ السيد محمد لم يكن يشجع أتباعه على الذِّهاب إلى أيِّ مكان شاؤوا، بل كانت تشغلهم مشاغل أمريكا عما عداها». حتى إنَّ الجولة التي قام بها إليجا إلى أفريقيا وآسيا (عام ١٩٦٠-١٩٥٩) كانت بإيعازمن مالك، يقول: «لقد زرت تلك البلاد بصفتي مندوبًا للسيد محمد، وبالطَّبع فقد كنت واضع هذه الرحلة ومخطِّطَها. وكان السَّبب الأوحد في عدم عودتي إلى تلك البلاد، أنّه ما كان ليدعني أذهب، فلم يكن يشجِّع أيًّا من أتباعه على السفرإلى مكة أو أفريقيا»[٢٥].

رابعًا: مقتله والمؤامره العالميَّة

شهدت الأشهرالسابقة لاغتيال الحاج مالك حربًا شعواء معلنة عليه من جبهات مختلفة، مثل مكتب CIA، ومكتب FBI. واتَّهمته الحركات القوميَّة للسُّود

بالانحراف عن قضيَّة السُّود نحو «العرب» وغيرهم. وكانت صحيفة Muhammad SPeaks لجماعة (أُمَّة الإسلام) تنال منه، وتلصق به التُّهم، وتصفه بالنِّفاق والارتداد، ولقي كذلك أتباعه حظَّهم من المضايقات والاستفزازات، وضروب التَّخويف؛ فضُرب أحدهم ضربًا مبرحًا لقي على إثره حتفه، واُضرِمت النَّار في منْزل مالكولم قبل مقتله بأسبوع كاد هو أسرته يهلك حرقًا لولا أنَّ الله سلَّم. وبلغت أعمال التَّرهيب مبلغها حتى أن مالك كان على أهبة للتَّصريح بأسماء الأشخاص الموكّلين باغتياله.

كما أنه قد عرف في تلك الفترة أصعب التَّجارب وأمرّها في تحوُّل الأصدقاء، وتخاذل الصِّحاب، وظلم ذوي القربى حتى أن شقيقَة «فلبير» الذي تنكَّر له، ووقف في صفِّ إليجا محمد، ألحْق به التُّهم ووصفَه بالهوس ومرض اضطراب النَّفس الذي أودى بأمِّهم[٢٦]. ومن صُور المضايقات والتَّحريض والتآمر العالمي ضدَّ مالك منعه من دخول فرنسا بأيام قبل مقتله حين تقدَّم لزيارتها ولإلقاء كلمته في مؤتمر الطُّلاب الأفارقة، وكان هذا المنع بطلب من الولايات المتحدة، والسنغال، وساحل العاج[٢٧]. ولا أدلَّ على فداحة تنكُّر الأقارب والأصحاب له من موقف شقيقه المذكور آنفًا المعادي له، حتى حين قُتِل لم يشيِّع جنازته؛ لأنَّه ـ حسب وصفه ـ مات ميتة ضالة[٢٨].

وهكذا جاءه أجله المحتوم في اجتماع OAAU المفتوح ظهيرة الأحد ٢١ فبراير عام ١٩٦٥، وكانت كلُّ الإرهاصات في ذلك اليوم تصرخ باقتراب خطرداهم، وأنَّ بالمكان ضغائن شرٍّ تتأجَّج حقدًا ونارًا، وتتأبَّط شرًا، وبفراسته الصادقة شعر مالك بما بيَّته القوم له، وصرَّح لأصحابه في صالة الانتظار عن تخوُّفه وتوجُّسه.. «إنّني لا أشعر بارتياح نحو هذا الاجتماع أشعر أنه ليس بالأجدر أن أكون هنا. إنَّ أمرًا غريبًا يحدث هنا يا إخواني!» وكان من المفارقة أن يختم المقدِّم حديثه قائلًا: «إخواني، إنني أقدِّم إليكم رجلًا ما كان ليبخل بحياته من أجلكم». ويتقدَّم

مالك إلى المنصَّة، ويلقي السلام على الحضور، ولا يكاد الحضور يردُّ تحيَّته حتى يعلو في مؤخِّرة الصالة هرجٌ وشجار، وحين تنصرف الأنظار إلى الضَّوضاء، يثب ثلاثة إلى المنصة وثبة أشقى قوم صالح؛ فيحاول مالك تهدئتهم.. «أيُّها الإخوة اهدأوا!» فتنطلق رصاصاتٌ إليه...

هذا، و إذا تضاربتْ الأقوال والتَّصريحات حول هويَّة قاتليه، فإنَّ مما لا شكَّ فيه أنَّه كان ضحيَّة فكره ومنهجه الجديد، وينبغي علينا التَّركيز على هذا الجانب حتى نقدِّره حقَّ قدره، ولا يشغلنا البحث الحثيث عن أولئك المجرمين عن تدبُّر فكره، ودعم ذلك والإبقاء عليه مشتعلًا منيرًا بإذن الله. وقد ألمح مالك إلى هذا الواجب في حقِّ دعوته بقوله: «ينبغي أن تدركوا أنّ ما أقوم به جدُّ خطير، لأنَّه تهديد مباشرٌ للنِّظام العنصريِّ الدُّولي بأجمعه، لأنّه تعريةٌ للتفرقة بأشكالها الدوليَّة، وعليه، فإنِّي إن أمُتْ أو أقتَل؛ فاطمئنُّوا أن ما حرَّكته لن يتوقَّف أبدًا»[٢٩].

إذنْ، لم يكن بخاف على الحاج مالك مغبَّة ما يقوم به، ووعورَة الطّريق الجديد الذي سلَكه، فقد علَّمه التاريخ أنَّه ما أتى رجلٌ بمثل ما أتى به، وما قصدَ قاصدٌ مثل غايته، إلاّ وتكالبت عليه أيدي المكر، وطواغيت القهر والاستعباد، إنَّ الحاج مالك ـ بكلِّ بساطة ـ لم يعُد ذلك السِّمسار في شوارع هارلم، ولم يعد ذلك المسلم الأسوَد المطبِّل لـ«نبي» مهوَّس، والذي تلتفُّ حوله أمَّة من بُسطاء النَّاس أو متعصِّبيهم ممَّن تحركهم العواطف العرقيَّة وممَّن يعيشون على أفيون التُّرَّهات، وينتظرون إلاَهَهُم «فارد» الهالك / المختفي أن يأتيهم ويهلك عدوَّهم الأبيض، ويضع مملكة السُّود، ويجعل الأرض جنة لهم... ولكنَّه أصبح ذلك المنذر الرَّشيد، المنبذ للتَّعصُّب، المعلِّق مصير قومه وتحريرهم بتحرير المغلوبين ـ جميعهم ـ على الأرض بصرف النَّظر عن ألوانهم وأشكالهم وأديانهم.

و إنْ كان مالك تنبَّأ بمصيره، فإنَّه قد كشف لنا بعض تفاصيل المكر المحاك ضدَّه، فقد أدرك بقراءته لسنن الصِّدام بين الحق والباطل، ومشاهدات التَّآمر أن أحزاب المكر في الخفاء جهاز معقَّد، وجيشٌ لوبيٌّ من شخصيات، وأحزاب وحكومات مختلفة كلُّها تستفيد من القضاء عليه، ولكن الذي يعلِّق الجرس ويجهز على الفريسة، ما هو إلاّ أضعف تلك الأحزاب، وربَّما أقلُّها انتفاعًا في هذه الصَّفقة الآثمة. وبالجملة، أدرك (مالك) أنَّه لن يقوم بالحلقة الأخيرة في هذه المؤامرة إلاّ أقرب الناس إليه ـ وباللمفارقة ـ أولئك الذين تحمَّل المخاطر من أجلهم، وأعلن الحرب من أجل خلاصهم من براثن الظُّلم والاستغلال. قال ذلك لمحدِّثه «جوليان Julian Mayfield» زعيم حركة الأفرو ـ الأمريكيَّة في أكرا (غانا) حين سأله ذاك عن «الأيدي الخفيَّة» فأجاب أنَّه إذا ما وقع له أيُّ شيء فلا يظنَّن أحدٌ أنَّ ذلك بالضَّرورة من المسلمين السُّود وحدَهم، فهي مؤامرة عالميَّة طالما أنَّه قد «عَوْلم» القضيَّة الأفرو ـ الأمريكيَّة.

المبحث الثاني: تجارب مهمَّة في حياة الحاج مالك شباز وقانون المثير والاستجابة

لعلَّ قراءة نفسيَّة لسيرة حياة مالك وشخصه، وتطبيق قانون «المثير والاستجابة» على المواقف الحياتية التي مرَّ بها مالك، يوقفنا على رهافة طبع مالك، وحدَّة شعوره لتلك المواقف، وبالتالي اتِّخاذه موقفًا محدَّدًا صارمًا تجاه كلِّ تجربة. وعلى ضوء هذا المفهوم، فإنَّنا نقف عند بعض تجارب مالك باعتبارها صدمات نفسيَّة خضع لها مالك، واتَّخذ موقفًا محدَّدًا منها، فأثَّر هذا الموقف في حياته تأثيرًا ملحوظًا. ولعلَّ أُولى تلك الصدمات المثيرة حرق البيض العنصريِّين منْزل عائلة مالكولم، وقتلهم لوالده، يلي ذلك سخرية معلم المدرسة منه، وفضيحة إليجا الجنسيَّة، ومفاجأته في مكة بكَرم الضِيافة العربيَّة، وبروح التوادد والإخاء والمساواة بين السود والبيض وجميع الألوان... ولنا وقفة عند الأخيرَتين.

أولا: فضيحة إليجا الجنسيَّة

كانت صدمة الفساد الخلقيّ الذي كشفت عنه صحيفة UPI وعن علاقة إليجا محمد الجنسيَّة غيرالشرعيَّة باثنَتين من سكرتيراته، أعنفَ الصَّدمات التي هزَّت نفس (مالكولم) وطبعت بصمتها على حياته وتصرُّفه ونظرته إلى «الإنسان» فيما بقي من عمره. ولثقة مالكولم البالغة بأستاذه وآ«نبيّه» إليجا محمد، فإنَّ (مالكولم) ما كان ليطمئنَّ إلى حرف من التَّحقيق الصحفي في حقِّ أستاذه، غيرأن طبيعته المتعطّشة إلى سبرالأمور، ومواجهة الحقائق، وقطع الشَّك باليقين ألجأته إلى مساءلة البِنتَين عن علاقاتهما بإليجا; فأكَّدتا له الخبر، وأنَّ كلًا منهما قد أنجبتْ منه طفلًا، وكانت قوَّة الصَّدمة عنيفةً، والفضيحة كبيرةً لأنْ يغضي عنها مالكولم، فهرع ـ عبثًا ـ إلى القرآن الكريم و إلى الإنجيل علَّه يجد فيهما مبرّرًا لفعلة أستاذه وقائده الرُّوحي الشَّنعاء، فكان (مالكولم) مثل الغريق الذي يتشبَّث بأيِّ جسم متحرِّك... وطبعًا، لم يسَعه إلاَّ السَّفرإلى شيكاغو ومساءلة الأستاذ.. وبكلِّ ثقة اعترف الأستاذ بفعلته بل برَّرها بالاستشهاد بقصص الكتاب المقدَّس المفتراة على أنبياء الله المعصومين، قال: «إنَّني أنا داود، فحين تقرأ عن أخذ داود حليلةَ غيره، فأنا ذاك داود، و إذا قرأتَ عن نوح الذي سكرِفهوأنا، و إذا قرأتَ عن لوط ذاك الذي ضاجع ابنته مِن صُلبه، فقد اكتمل فيَّ جميع تلك الصِّفات(!!!)»[٣٠].وبهذا الافتراء، كان إليجا يريد أن يوغل في تدجُّله وتضليله لمريده المخلص، ويسجِّل لنفسه مكسبًا جديدًا، ويبني حول نفسه هالةً أخرى من المناعة والقداسة، ولكنَّ الجرح في قلب المريد كان عميقًا، مستعصيًا على الاندمال، وكانت الصَّدمة عنيفة لبعثه من موتة الانقياد العمياء لقائده.

ثانيًا: صدمة الجهل بأساسيَّات العبادة

لعلَّ أعنفَ صدمة أشعرت الحاج مالك بالحيرة والخجل من نفسه منذ أن حطَّ رحالَه في الأراضي المقدَّسة إدراكُه مدى جهله بأساسيَّات الدين الإسلامي وأوَّلياته

في الاعتقاد والعبادات، وعجزه عن التواصل مع الحجاج، حتى لكأنه أخرس صامت، وهو من هو! الخطيب المفوّه، الناطق الأول باسم جماعة المسلمين في أمريكا منذ ما يزيد عن عقد من الزمن! فإذا كان الحاج مالك لا يؤاخذ على جهله بالعربية لغة القرآن والتعبد، فإنه لم يكن ليعذر في جهله بكيفية الصلاة الصحيحة، وعجزه عن قراءة الآيات وأذكار الصلاة بالعربية.

ولا شك أن (الحاج مالك) بطبيعته التواقة إلى المعرفة، ونفسيته المتفتحة لنقد الذات، كان أول اللائمين لنفسه على تقصيرها و إفراطها في حق ربها ودينها، لذلك لم يجد غضاضة في الشك الذي ساور القائمين على أعمال الحج في صحة إسلامه، بل كان تمثيله واستجوابه أمام المحكمة الشرعية تشريفًا له،وتخفيفًا لوطأة الأسى والندم أمام نفسه اللوامة، لأنه خرج من التحقيق وقد حاز وسام القبول والاعتراف من أكبر هيئة إسلامية في أقدس بقاع المعمورة. وكان من المواقف الإيجابية لتلك الصدمة لدى (الحاج مالك) توسيع ثقافته الدينية وتعميقها بالانكباب على الكتب الدينية،والإصغاء إلى العلماء والجلساء ومناقشتهم، والإلحاح عليهم بالأسئلة عن الإسلام وأحوال العالم الإسلامي. أما على المستوى الجماعي، فقد باشر الحاج مالك بتأسيس فصول لتعليم الصلاة،وقراءة القرآن، وتعليم اللغة العربية على يد الشيخ حسون الذي ابتعثته رابطة العالم الإسلامي إلى الولايات المتحدة للعمل مع مالك جماعته.

المبحث الثالث: الحج ومنعطف التغيير في حياة مالكولم إكس

لقد اضطلعت رحلة الحج وشعائره بإحداث تغيير جذري في حياة الحاج مالك، كان هذا التغيير سببًا في تخليد ذكراه، وفي جعله في مصاف رجال الإسلام والإنسانية العمالقة،وقد سطر الحاج مالك تلك المشاعر في سيرة حياته، ووقف عند كل مشعر من مشاعر الأراضي المقدسة، وعلى الرغم من استحالة إبراز

تلك المشاعروالنفحات الإيمانية الكامنة في النفس، فإن مالك قد نجح في بث الكثيرمن أحاسيسه، وأودع هذا الجزء من سيرته دروسًا وعبرًا يجمل بنا قراءتها وتمثلها في وقفاتها في تلك المشاعرالمقدسة. ومن تلك المواقف التي وقفها واستنبط دروسًا إيمانية فيها المواقف الآتية:

أوَّلاً: مكة المكرمة والشُّعور بالكرامة

كان نزول الحاج مالك شباز بمكة المكرَّمة، نقطة تحوُّل في نظره إلى نفسه وتقديره حقَّ قدره، تقديرًا ليس منشأهُ الصَّلت والكِبْر، ولكنه تقديرٌ مظلَّل بجلال عظمة الخالق الجبَّار. و إذا جاز أن نستعيرمثَلهم الساحر«كَلب الملك، سيِّد الكلاب»، فإنَّ إجراءه على العبد المسلم الذي يستشعرأنَّه عبدُ ملك الملوك، يفضي به ـ حتمًا ـ إلى الشُّعوربأنَّه «سيِّد العباد»، وأنَّه واقفٌ ببقعة هي «مكرَّمة» من لدُن ذي الجلال والإكرام... يقول مالك: «طوالَ سِنيَّ التِّسع والثَّلاثين على هذه الأرض، كانت مدينة مكة المقدَّسة أوَّل بقعة وقفت فيها أمام خالق كلِّ شيء، مستشعرًا بأنَّني إنسان كامل».

وهكذا رجحت تجارب ساعات معدودة، ورجحتْ مشاعربقاع قليلة العدد على تجارب أزمنة وأمكنة غيرمحصورة، وتواطأ المكانُ والزَّمان على تغييرنظرة الحاج مالك عن نفسه؛ لأنَّه ـ طوالَ تسع وثلاثين حجج ـ كان ينظرإلى نفسه من خلال معادلة (رجل أسوَد #رجل أبيض)، وكانت الغلبة الحتميَّة دائمًا للقطب الأبيض، مما جمَّع في نفس (مالكولم) مركَّبات نقص ومعاداة لهذا الأبيض. أما في هذا الموقف الخالي من تلك المعادلة، فقد شعر بالكرامة، ووازن نفسَه بنفسِه ومن خلالِ عظمة الرَّب الذي خلقه.

ثانيًا: عرفات (موت النبي الأسوَد والشيطان الأبيض)

كانت عرفات والوقوف بها المسرحَ الفعليَّ الذي ساعد الحاج مالك شبازعلى مراجعة حقَّة لماضيه، ودفعه إلى تعديل جذريٍّ لرؤيته و إدراكه لحقيقة العالميَّة الإسلاميَّة، ومحو شائبة الألوان والأعراق. وبتماحي الألوان، فإنَّ العالم قد ظهرعلى حقيقته أمام مالك، وظهرالرِّجال مجرَّدين عن الأصباغ الملوَّنة.. يقول: «في مكَّة، استذكرتُ السنوات الإثني عشرة التي قضيتُها مع إليجا محمد، كأنَّها تمرُّ أمامي بحركة بطيئة، وأظنُّ أنه ليس بمقدور أيِّ إنسان إدراكُ عمق ثقتي الكاملة في شخص إليجا محمد.. ولكنَّني من عَلى أقدَس بقعة في الدُّنيا، أدركتُ مدى خطورة إيلاءِ مثل هذا الاعتبارلإنسان، خاصَّة اعتقاد تلقِّيه نوعًا من الوحي الإلهي، أوإعطاؤه نوعًا من العصمة»[٣١].

يكشف لنا هذا التَّصريح عمق الرَّابطة بين الحاج مالك وقائدِه الأوَّل، وعلى الرغم من انفصال (مالك) عن حركة إليجا، فإنَّ مكانةَ هذا الرَّجل كانت عميقة الجذورِفي نفسِه؛إذْ إنَّ (مالك) كان قد أسلم نفسه إليه طوعًا، وانقاد له مثل «ميْتِ بين يدَي غاسله»، أو كما يقول مالك نفسه: «كنت قد صدَّقته وآمنت به أكثرمما يصدِّق هو نفسَه». وما كان ليجتثَّ تلك العروق العميقة من أصولها إلاّ موقفٌ إيمانيٌّ عنيف كهذا، موقفٌ بين يدَي ربِّ العالَمين. يقول (مالك): «أشعر كأنني مثل رجل ظلَّ مُنوَّمًا ـ بطريقة مَّا ـ تحت تأثيرإنسان آخر. أشعرأنَّ ما أقوله الآن، وما أشعربه الآن أنَّه نابعٌ من نفسي، ومن قبلُ، كان فكري وكلامي كلُّه من وحي إليجا محمد. إنَّني الآن أفكِّربعقلي الخاص»[٣٢]. وبهذه الكلمات يعلن (مالك) عن يقظة ووجود جديد لنفسه، كما يعلن .إعلانًا خطيرًا .عن موت «الإله/ النبي الأسوَد»؛فما دام الحاج (مالك) قد وقف شامخًا فوق أعلى قمَّة مباركة في الأرض المقدَّسة، وعَرف ـ لأوَّل مرَّة ـ نفسه كإنسان مكرَّم، فقد تضاءل أمام عينيه كلُّ مخلوق حاشا الملك الجبار، وبطُل لديه سحرُ كلِّ «مُنوِّم

مغناطيسي». إنَّ جاهليات الفكروالاعتقاد، وادِّعاء العصمة والنُّبوة لإليجا، موضوعةٌ تحت قدَميْ الحاج (مالك) اليقظ الرّافض لتلقِّي الأوامرعلى الرِّيموت. ﴿أو منْ كانَ ميْتًا فأحيَيناهُ وجعلنَا له نورًا يمشي به في الناس... ﴾.

ومن الطريف أنَّ هذه القاعدة في تجرُّد الناس عن ألوانهم، قد طالت الحاج مالك نفسه، وقد وصفت زوجته «بيتِي شباز» هذه الحقيقة بقولها: «مضى إلى مكَّة وهو مسلمٌ أسوَد، وأصبح هنالك مسلمًا فحسب»[٣٣]، فكأنَّ مالك انسلخ من لونه كما تنسلخ الحيَّة من جلدها، أو أنَّه بحمله للقب (الحاج)، سقط عنه قناع «الأسوَد» لأنَّ الحجَّ انفتاحٌ على العالَم، انفتاحٌ لا يستقيم والانغلاقَ في لبوس من العنصريَّة والطائفيَّة والكره للآخرين. هذا، وقد اعترف مالك بأنَّه كان منغلقًا في لبوس اللَّون قبل سفره إلى الحج، حين كشف عن سرِّعدم سفره إلى بلاد الكاريبي طوال سنوات عمله تحت قائده إليجا؛ لأنَّه كان «مسلمًا أسوَدَ، وفي حركة المسلمين السُّود».

ثالثًا: الحج والوعي الوحدويُّ بين البشر

من نافلة القول الإشارة إلى أنَّ أهمَّ درس تعلَّمه الحاج مالك في رحلة الحج وفي أداء شعائره هو الوعي بضرورة وحدة البشرلا وحدة المسلمين فحسب، وتعلَّم ـ فوق ذلك ـ بعض الإجراءات العمليَّة لتحقيق تلك الوحدة وخصائصها. ومن تلك الإجراءات: .إنَّ من لزوميات تحقيق الوحدة العالميَّة الإيمان بوحدة الخالق سبحانه، واعتمادًا على ذلك فقد دعا مالك أمريكا إلى القَبول العاجل لعقيدة وحدانيَّة الخالق (The immediate acceptance of the oneness of God)، وأكَّد أنَّ ذلك هو الخيارالأوْحد أمام أمريكا للخروج من مأزق العنصريَّة، والنَّجاة من الانهيارالمحدِّق بها .إنَّ الوحدة العالميَّة تنبني على أساس من الوحدة المحليَّة سواء أكانت وحدة

إقليميَّة أو عرقيَّة أو دينيَّة. تعلَّم مالك ذلك حين لاحظ أنَّ الحجاج ـ على الرغم من تماحي الفوارق بينهم ـ يجتمعون أفواجًا أفواجًا، حيث الأفارقة مع الأفارقة، والباكستانيُّون مع الباكستانيِّين... تجمعهم أخوَّة صادقة. كان التَّطبيق المباشر لهذا المفهوم حين أسَّس مالكولم جماعته الجديدة وأكَّد في دستورها أنَّ وحدة السُّود والبيض لابدَّ أن تنطلق ـ أوَّلًا ـ من وحدة السُّود أنفسهم[٣٤].

المبحث الثالث: ملامح مميزة لشخصيَّة مالك وتأثيره الفكري في الشباب

في ختام هذا العرض عن حياة مالك شباز، يجمل بنا طرحُ سؤال ومحاولة الإجابة عليه: تُرى ما الملامح المميزة لشخصيَّة مالك شباز، وما الآثار الإيجابيَّة، والمكاسب الدَّعويَّة التي اضطلعت بها رحلة الحجِّ في حركة الحاج مالك؟ ولا شكَّ أنَّ الإجابة على تلك الأسئلة تستدعي الإطالة والاستقصاء، غير أنَّنا نحاول الاختصار بسردِ أهمِّ تلك المميزات كما يلي:

١ ـ إنَّه تميَّز بالرُّوح الحركيَّة، والبعد عن الإيديولوجيات التي ليس وراءها عملٌ، فكلَّما تعلَّم شيئًا انطلق مباشرةً إلى تنفيذه، و إخراجه في حيز الواقع ولعلَّه قد تشرَّب تلك الرُّوح منذ نعومة أظفاره من طبيعة الحركة الغارفيَّة التي كان والده داعيتها ورئيس تجمُّعها في مدينة «أومَاهَا». ويعدُّ هذا الجانب أحد الأسباب الأساسيَّة في انسلاخ مالك عن حركة أستاذه إليجا؛ إذ رأى أنَّ أستاذه يجمع الناس حول فضفاض من الفكر، ويسوقهم إلى هدف غير ملموس، فدعا مالك إلى ربط الدِّين بالحياة، وتفعيله في حياة الناس: في الاجتماع والسِّياسة، والاقتصاد، وقد صرَّح بهذه النَّظرة في حديث له بمعهد Tuskegee بعد انفصاله عن (أمَّة الإسلام) بقوله: «إذا كان إليجا يجلس وينتظر، فإنَّني لا أجلس وأنتظر الله أن يأتي (يُعرِّض بفارد محمد المنتظر). إنَّني أؤمن بالدِّين، ولكن أؤمن بدين يشمل الحركة

السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، تلك الجوانب التي من شأنها بناء جنَّة هنا على الأرض ريثما ننتظر الجنة الأخرويَّة»[٣٥].

٢ ـ إنَّ مالك قد مثَّل بحياته الأمل للضائعين في الهداية والصَّلاح، وأن الصعود من الحضيض الخُلقيّ، إلى قمة المثُل العليا ممكن وليس من المستحيلات. بل إنَّ (مالك) يؤكِّد بأنَّ التَّغييريكون أظهر، وأكبروقعًا في الإنسان الذي كان في الدَّرك الأسفل من التردّي والانحطاط.. «لا يمكن أن يحدث تحوُّل كليٌّ لأحد أكثرمن الذي كان أكثرفسادًا. إنَّني أسمِّي نفسي أفضلَ مثال لذلك.» ولا شك أن معادلة «التَّطهير» قد بلغت أعلى مؤشراتها وأصفاها بعد حجِّه، كما أشار إلى ذلك في أكثرمن مناسبة. فالحجُّ يجبُّ ما قبله.

٣ ـ إنَّه كان أنموذج التَّقارب بين المسلمين والمسيحيِّين السود في أمريكا، خاصَّة في المرحلة الأخيرة من حياته، وذلك بنضاله ضدَّ العنصريَّة، واستعلاء الرَّجل الأبيض، ومن أجل ذلك أمكن لكثيرمن الجماعات المختلفة ادِّعاء أحقِّيتها (بمالك)، وربطت علاقات نَسَبها الفكريَّة والأيديولوجيَّة بأفكاره.

٤ ـ إنَّه تميَّزبروح النَّقد الذاتي، والاعتراف بالخطأ، ومحاولة تصحيحه عاجلًا، حتى أنَّ بعض المتحاملين عليه وصفوه بتغييرمبادئه ومواقفه طبقًا للظروف، ورغبةً في اكتساب المؤيِّدين[٣٦]. ولا شكَّ أنَّه تحامُل مغرضٌ خاصَّة إيرادُه في سياق رجوع الحاج مالك عن نظرته العنصريَّة ضدَّ البيض بعد رجوعه من الحج.

٥ ـ ومن المكاسب الدعويَّة في أثررحلة الحج في فكرالحاج مالك وفي حركته، تقويته لجناح الحركات الإسلاميَّة السُّنيَّة في أمريكا، والتي كانت جماعة (أمَّة الإسلام) المنحرفة قد طغت على وجودها، وحجبتْ صورتها عن البروز على السطح الإسلاميّ في الوسط الأمريكي، مثل جماعة دارالإسلام، وجماعة

الأخوة الإسلاميَّة Islamic Brotherhood Inc.، وجماعة Islamic Party وكان ذلك سببًا لتأسيس بعض الحركات الإسلاميَّة صحيحة المنهج

٦ ـ حمله صورةً أنموذجيَّة طيِّبة للإسلام في الوسط الأمريكيِّ خاصَّة، والعالمي عامَّة، وذلك بدعوته إلى السَّلام العالمي بين الأديان، والأجناس، وتصحيحه لصورة الإسلام المشوَّهة لدى الغرب في الإعلام، وفي ممارسة بعض الحركات الإسلاميَّة المنحرفة، وقد كان الحاج مالك ـ مِن قَبلُ ـ أحدَ الممثِّلين الكبار في هذه الحملة التشويهيَّة للإسِلام في المخيلة الأمريكيَّة بفعل تعاليم قائده إليجا المغلوطة، غير أنّه وُفِّق في إتباع السيِّئة الحسنة إن شاء الله.

٧ ـ إنَّه أعاد الأمل والثِّقة إلى المسلمين المهاجرين من الدُّول العربيَّة والدُّول الإسلاميَّة في الشرق الأوسط وآسيا، وطلبة الجامعات المسلمين؛ فالتفَّ حوله بعضهم قبل مقتله، كما أسَّسوا منظمات إسلاميَّة بعد مماته لدعوة الأمريكيِّين، وتصحيح العطب الذي أحدثته جماعاتٌ منحرفة باسم الإسلام.

٨ ـ كونُه «جرس التَّنبيه» الذي أيقظ في صفِّ جماعة «أمَّة الإسلام» الوعي لمراجعة فلسفتها وعقيدتها الإسلاميَّة. ولعل ذلك ما سهَّل لخَلِف إليجا محمد ابنِه وارث الدِّين محمد حملته التصحيحيَّة لعقيدة الجماعة وممارساتها.

ثانيًا: تأثير الحاج مالك شباز الإيديولوجي

إنَّ أوَّل مظهر من مظاهر تأثير الحاج مالك ـ محليًا وعالميًا ـ يمكن أن يُلمَس في الصبغة الحركيَّة الواضحة في حياته، حيث لم يترك مدوَّنات فكريَّة، وإنما كان كلُّ حياته تطبيقًا عمليًا حيًا لفكرته. وعلى الرَّغم من انفصاله عن جماعة (أمة الإسلام) قبل وفاته، وتأسيسه لتنظيم خاص، فإنَّ تأثير مالك على الأفراد والجماعات الدينيَّة والسياسيَّة ظلَّ واضح المعالم في تفكير أولئك الأفراد وسياسات الجماعات.

و إذا كان (مالك) قد لقي إعراضًا من بعض الجماعات القوميَّة بين السود، بسبب دعوته الإسلاميَّة، أو بدعوته إلى التَّعايش السِّلمي بين السُّود والبيض، أو الجماعات الإسلاميَّة لسبب أو لآخر. فإن مقتله كان سببًا لتعيد تلك الجماعات نظرتها في دعوة مالك، وتقيِّم أيديولوجيَّته في ضوء الأسباب الغامضة في اغتياله، وفي هويَّة قاتليه. وقد أدَّى ذلك بأولئك إلى ترديد شعارات مالك في المناداة بالتحرير الأفريقيّ، والشُّعور بالكرامة، والاعتزاز بالذَّات. ومن الحركات الجديرة بالذّكر في هذا الصَّدد، منظمة الكونجرس للمساواة العرقيَّة (CORE)، واللجنة التَّنسيقيَّة السلمية للطلبة (SNCC)، فقد تبنت هاتان الجماعتان دعوة مالك إلى الاعتزاز العرقي، وبناء السُّود لمؤسَّساتهم الخاصَّة، وتشكيلهم قوَّة دفاعيَّة لأنفسهم.

ومن العوامل المباشرة في تأثير أفكار مالك في الجيل اللاَّحق نشر سيرة حياته عام (١٩٦٩) التي كتبها مع الكاتب المشهور أليكس هالي، صاحب رواية «الجذور»؛ فأصبح هذا الكتاب من أكثر الكتب رواجًا، كما أصبح «دستورًا» فكريًا لحزب «النَّمر الأسوَد Black Panther» المؤسَّس عام ١٩٦٦، لتأكيد على إمكانيَّة تحويل المجرمين السابقين إلى مصلحين اجتماعيِّين، وثوريِّين مثاليِّين. ونُشِرت كذلك خُطبُه ومحادثاته الإذاعيَّة والتلفزيونيَّة التي غدت مجال دراسات كثيرة، والتي وجَّهت المسار الفكري الحركيَّ لمعظم التجمُّعات الشبابيَّة.

وبحلول حقبة الثمانينيات، وضمور معظم الحركات القوميَّة بين الأمريكيين السُّود، وتخفيف حدَّة المطالبة بحقوق السُّود، والدَّعوات الاستقلاليَّة التي نجحت هنا وهناك في أفريقيا وفي غيرها، فإنَّ «شبح» مالك ما زال مستعصيًا على المحو والنِّسيان. بزغ من جديد في الفِرق الغنائيَّة لموسيقى الرُّوب، وفي أروقة الجامعات والمعاهد خاصَّة حين يطرأ بعض المشاحنات بين السُّود والشُّرطة البيض؛ وتطفو المشكلة العرقيَّة والعنصريَّة، فيهرع الشَّباب إلى شعارات مالك وأقواله المأثورة،

بوصفها أسلحةً فكريَّة يغرون بها السُّلطات الحكوميَّة، ويهاجمون بها معارضيهم، مما يدلُّ على أنَّ أفكار مالك ومُثُل حياته القصيرة، ما زالت جزءًا أساسيًا في النّسيج الإيديولوجي للشَّباب، وما زال سلاحًا ماضيًا يلوِّحون به في وجه الخصوم، لتأكيد الذّات، وكسب المعارك.

وقد بلغ الحماس (الشكلي غير الواعي) لمالك شباز ذروته في أواخر الثمانينيات والتسعينيات حين أصدر الهوليوود فيلمًا سينمائيًا عن حياته (١٩٩٢) بإخراج Lee Spike فأفرز ذلك جيلًا من الشباب المتحمسة لمالك، أطلق عليه بعضهم مسمى «الهوس المالكومي Malcolmania» أو جيل «X» الذي يتكالب على كل بضاعة يحمل رمز «X» أو اسم مالكولم أو صورته، من قبعات، وقصمان، ونظارات شمسية، وساعات، ويحرص على المظاهر الشكلية المميزة لمالك، مثل طريقة تصفيفه لشعره، وعادته في الجلوس أو الوقوف لإلقاء الخطب.. ترى أيكون ذلك صرفًا لشباب عن فكر مالك كما كان وضع صورته على طوابع بريدية عام ١٩٩٧م، في رأي بعض المسلمين، صرفًا للمطالبين بالكشف عن تقارير مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI، عن مالك وملابسات اغتياله؟[٣٧].

ملاحظات ختامية

بقي أن نولي أمرًا بالغ الأهمية ألا وهو حسن الوفادة والرفادة التي عرف بها أهل مكة، وشعب الحرمين الشريفين وولاة الأمر على مر العصور والأزمان، وأثرها البالغ في تفهم (مالك) لمفهوم الأخوة الاسلامية، فلولا حسن الضيافة والحفاوة البالغة التي شده بها الحاج مالك شباز منذ أن وطئت قدماه الأراضي المقدسة لما التفت مالك إلى ما تلاها من المظاهر الأخرى، ولكنه بانبهاره بكرم الشيخ عبدالرحمن عزام، وبالعناية الخاصة من لدن الملك فيصل بن عبدالعزيز، كل ذلك قد كان الزناد الذي أشعل في نفس مالك التيقظ لتقدير جميع مظاهر الأخوة الإسلامية،

والمساواة بين المؤمنين بصرف النظر عن ألوانهم وألسنتهم، وقد أكد مالك في سيرة حياته على تلك الجوانب، واعترف بالجميل، وكان من دواعي إكباره وتقديره لتلك الحفاوة كونها من أناس لا يرجون من ورائها إلا وجه الله سبحانه.

رسالة من مكة

نظرًا لأهميّة الرسالة التي بعث بها الحاج مالك شباز من مكة إلى أصحابه في الولايات المتحدة، فقد أحببنا ترجمتها كاملة، حتى تنطق بنفسها عن نفسها، وتجلي الأثر الإيماني والرؤية الإنسانية التي أحدثته تلك الرحلة، والتجارب المعدودة في حياة مالك. إن أول ما يستلفتنا في هذا الخطاب عنوانه حيث اختفى اسم الكاتب من العنوان، فلم يقل مثلًا: رسالة من الحاج مالك في مكة.. ولعلّ تواري الكاتب في العنوان إيماءة لطيفة ـ ولو بأسلوب غير لا شعوري ـ أن ما يكتبه أكبر من أن ينسبه إلى نفسه، و إنما هو من وحي مكة، وأن حقائق الحياة هي التي أملت على الكاتب هذا الخطاب.

يقول:

«إنني لم أشهد ـ في أرض ـ مثل هذه الضيافة الصادقة، والاحتفاء البالغ الممزوج بالأخوة الحقة مثلما هو مطبق بين الناس من جميع الألوان والأجناس في هذه الأرض المقدسة بلد إبراهيم، ومحمد وجميع الرسل (عليهم السلام). لقد غدوت منذ الأسبوع الماضي أخرس أمام صور الكرامة المحاطة بي من قبل الأناس من كل لون.

لقد أكرمني الله بزيارة بلدة مكة المقدسة: فطفت الأشواط السبعة حول الكعبة بقيادة المطوف محمد، وشربت من ماء زمزم، وسعيت سبع مرات بين الصفا والمروة، وصليت في بلدة منى القديمة، ودعوت الله على جبل عرفات.

كان هناك عشرات الآلاف من الحجاج من كل أرجاء العالم، كانوا من جميع الألوان: من ذوي العيون الزرقاء إلى ذوي البشرة السوداء الأفارقة، لكنهم كانوا يؤدون شعيرة واحدة مظهرين روح الوحدة والأخوة التي لم أعهدها في أمريكا .وقد كانت خبرتي في أمريكا قد قادتني ـ خطأ ـ إلى الاعتقاد أن مثل هذه الروح الأخوية مستحيلة التحقق بين الأبيض وغيرالأبيض.

وعليه،فإن أمريكا بحاجة إلى فهم الإسلام، لأنه الدين الوحيد الذي يمحو من المجتمع الأمريكي المشكلة القومية، فمن خلال أسفاري في العالم الإسلامي، جالست وحادثت، بل آكلت أناسًا لو كانوا في أمريكا لعدوا من البيض، لكن تصرف «الأبيض» قد انتزع من قلوبهم بفعل الإسلام. إنّني لم أشهد مثل هذه من قبل الأخوة الصادقة والحقة حاضرة يطبقها الجميع دون اعتبارللون.

ولعلكم تصدمون بتلك الكلمات مني، لكن الذي شاهدته في هذه الحجة قد أرغمني على إعادة ترتيب قواعد تفكيري السابقة، وعلى نبذ بعض استنتاجاتي القديمة، وبالطبع،فإن ذلك لم يكن صعبًا علي. وعلاوة على عزيمتي الصادقة، فإنني ظلت دومًا رجلًا يواجه الحقائق، ويقبل الواقع الحياتي بوصفه خبرة ومعرفة جديدة.

خلال الأيام الأحد عشر السابقة في العالم الإسلامي، فقد شاطرت إخواني المسلمين الأكل من آنية واحدة، والشرب من كوب واحد، والنوم معهم على فرش واحد، ممن هم من ذوي العيون الأشد زرقًا، والشعورالأشد شقرا، والبشرة الأنصع بياضًا. ومن خلال كلام «البيض»،وتصرفاتهم،شعرت بالإخلاص نفسه الذي شعرت به بين المسلمين الأفارقة في نيجيريا والسودان وغانا.

حقًا،لقد كنا إخوة، لأن إيمانهم بإله واحد قد نزع من قلوبهم «الأبيض»، ونزع «الأبيض» من تصرفاتهم، كما نزع «الأبيض» من أفكارهم.وقد تبين لي من ذلك أن الأمريكيين البيض إذا كان بإمكانهم قبول وحدانية الله،فمن الأجدر ـ

بطبيعة الحال ـ قبول وحدة الجنس البشري، وترك تقييم الناس، على أساس «الاختلاف» في اللون وبتضاعف العنصرية التي تنخرفي أمريكا مثل سرطان مستعص على العلاج،فقد آن الأوان لأمريكا أن تنجو بنفسها من هذا الدمار المحقق، ذلك الدمارالذي حل بالألمان بفعل العنصرية.

إن كل ساعة أقضيها هنا في الأرض المقدسة تخولني رؤية روحية واسعة للنظر فيما يحدث في أمريكا بين السود والبيض.فالزنجي الأمريكي غيرملوم في حقده العرقي،لأن تصرفه ردة فعل لأربعمائة عام من عنصرية الأمريكيين البيض. وبما أن العنصرية تجرأمريكا إلى طريق الانتحار، فإنني أؤمن ـ اعتمادًا على تجاربي الخاصة مع الأمريكيين ـ أن الجيل الجديد من البيض، في المعاهد والجامعات، سوف يرى الكتابات الجدرانية، وسوف ينصرف كثيرمن تلك الكتابات إلى الحل الروحي الحق، الطريق الأوحد الأخيرلأمريكا لتفادي الدمار الذي تؤول إليه العنصرية لا محالة.

إنني لم أحظ قط بحفاوة مثل هذه ، ولم أشعربمثل هذا التواضع، فمن الذي كان يتنبأ بمثل هذه الإكرام في حق زنجي أمريكي؟ ومنذ ليال معدودة فحسب، كان في خدمتي هذا لرجل الذي يمكن تسميته بـ(أبيض) في أمريكا، وهو دبلوماسي في الأمم المتحدة، سفير، نديم الملوك.. وجعل تحت تصرفي جناحه في القصر. حقًا،إنني لم أحلم قط بأن أحظى بمثل هذا الإكرام، إكرام يخص به الملوك في أمريكا فحسب، لا رجل زنجي.

الهوامش:

١ .هذا من إطلاق علي صديقي في ورقة قدمها في سمنارجماعة المسلمين في دنفيرالأمريكية بمناسبة أسبوع تاريخ السود عام ١٩٨٨.

٢ .عبد الله أحمد الداري،*الوجود الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية*، (جدة: الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون،١٤٠٣هـ)، ص ١٢.

3-Sulayman S. Nyang. Nyang. Lalam in the United States of America, (Chicago: ABC International Group Inc. 1999). P. 12 .

4-The Muslim Almanac, p 148 .

5-Yvonne Yazbeck Haddad, The Muslims of America, p 55 .

٦ .دينس ووقر، «الإسلام بين الأرقاء السود في شمال أمريكا في القرنين الثامن عشروالتاسع عشر». مجلة مجمع البحوث الاسلامية، إسلام آباد، باكستان،مج ١٤، عدد ٤، ص٣٣ - ٣٤.

7-Lincoln Chartes Eric, The Black Muslim in the United Stated, p 170 .

8-Ibid, p 135 - 136 .

٩ .في ولاية تينيسي Tennessee ،لمحاربة الجنوبين الجمهوريين من البيض، وجميع «الملونيين« في الولايات المتحدة الأمريكية، ومعارضة انتقالهم أو سكناهم في بعض المدن والأحياء، وتقوم العصابة بهجومات منتظمة على اليهود والسود بكسرنوافذ بيوتهم، أو إحراقها ، و إتلاف ممتلكاتهم، وربما الاعتداء عليهم بالقتل، وممارسة صورالاستفزازوالتخويف. ولا تزال تلك العصابة نشطة بأشكال وهيئات متعددة حتى وقتنا الحاضر.

10-Malcolm X Speaks, p 135 .

11-Decar, On The Side of my People. 47 .

12-Malcolm X, Autobiography, p 54.

13-Ibid, p 102 .

14-Ibid, p 99 .

15-Lomax E. Louis, When the Word is Given, p 50 .

16-Decaro, On the Side of my People, p 90 .

17-Ibid, p 91 .

18-Ibid, p 92 .

19-Letter from Malcolm Little to Mr. Dwyer, Norfolk prison Colony Transportation Bord, 28 July, 1947, PF .

20-Clifton E. Marsh, From Black Muslims to Muslims, p 55 .

21-Malcolm X, Autobiogaphy, p 241-242 .

22- Ibid, p 265.
23- Cliftonn E, From Black Muslims to Muslims, p 60.
24- Malcolm X, Autobiography, p 361.
25-Decaro, On the Side of my Peo;e, p 267.
26- Goldman, The Death and Life of Malcolm X, p 232.
27- Ibid, p 331.
28- Clifton E. Marsh, From Black Muslims to Muslims, p 67.
29- Eugene V. Wolfenstein, The Vicims of Democracy: Malcolm X, p 328.
30- Malcolm X, Autobiography, p 299.
31- Malcolm X, Autobiography, p 367.
32- Breitman, Malcolm X Speaks. P 68.
33- Clifton E. Harsh, From Black Muslims to Muslims p 61.
34- DeCaro, On the Side of my People, p 216.
35- Ibid, p 269
36- Houston A. Baker Jr, The Black Public Sphere, 44.
٣٧ .ينظرمناقشة جادة لهذه القضية في كتاب: Clayborne Carson, Malcolm X: The FBI. files.